ليس لهو أطفال

قصة قصيرة

د. أحمد خالد توفيق

منقولة عن موقع إضاءات

لأنني من عشاق كتابات د. أحمد خالد توفيق منذ الصغر، فقد فكرت في جمع قصصه ومقالاته المجزأة في كتيبات صغيرة، يحتوي كل كتيب على قصة مُكتملة أو موضوع مُستقل، حتى يسهل على محبيه الإستمتاع بكتاباته الرائعة.

مدونة اقرأ
تاريخية ، ثقافية ، سياسية

ليس لهو أطفال

قصة قصيرة

د. أحمد خالد توفيق

رسوم : طارق عزام

منقولة عن موقع إضاءات

كان حيًا..

عرف كامل أنه حي وأنه يتحرك.. يمكنه أن يحرك أنامله. وبرغم الوحل الذي يسد خياشيمه وفمه وتلك الرائحة العطنة، فإن بوسعه أن يدرك يقينًا أنه حي.

ثمة احتمال بسيط أن يكون قد مات ولا يدرك هذه الحقيقة، ويكون هذا المكان الكابوسي هو القبر، لكن كل شيء يبدو حقيقيًا ملموسًا. ثمة شيء يميز الواقع بالتأكيد وإلا فلا يوجد شيء اسمه واقع.

راح يشق طريقه وسط الوحل والظلام. محاولة النهوض مستحيلة لأنه لا توجد أرض يرتكز عليها. إنه يزحف في وضع أفقي وينزلق كلما حاول الاعتدال. هذا المكان أقرب إلى مستنقع كريه الرائحة.. كأنه غرق في أنابيب الصرف الصحي مثلاً، ولم يحاول أن يفتش أكثر أو يفهم ما يحدث حوله، لأنه أدرك أن الأشياء الدقيقة التي يخوض فيها هي ديدان.. ديدان موجودة بكثافة غير عادية حتى صارت أقرب لمستحلب.

كان يحاول جاهدًا تذكر كيف ومتى جاء هنا.. لا يستطيع التذكر. كان هنالك في جمصة ينعم بالمصيف.. هناك قناديل بحر كثيرة قرب الشط، لذا قرر أن يتجه إلى أقصى اليمين حيث منطقة نائية لا يرتادها المصطافون وعلى الأرجح لا توجد فيها قناديل بحر.

كان هذا قرب الغروب.. غروب يوم من أيام يوليو.

نزل إلى البحر وراح يستعرض مهارته في السباحة أمام جمهور وهمي، وهي مهارة ضئيلة تشبه سباحة الكلاب كما تعلم.. لكنه كان وحيدًا آمنًا من اللسعات المؤذية للقناديل..

ماذا حدث بعد هذا؟ هو غير قادر على التذكر فعلاً.. فقط كانت هناك قوة كاسحة تقوده لأسفل وكان يقاوم وينثر الماء ويحاول التنفس جاهدًا.

بعد هذا ظلام.

يمكن القول إنه غرق، وهذا يعني أنه الآن في العالم الآخر يواجه عذاب القبر أو ما هو أسوأ. لكن كل شيء كان يخبره إنه ما زال حيًا.. يجب أن يفهم..

****

سامح كان منبهرًا بالمشهد بينما القارب يشق طريقه في المياه..

طريق أبيض رغوي يتم شقه خلف القارب.. لكنه طريق قصير العمر فعلاً، فلا يلبث حتى تندمل الأمواج ثانية ويختفي الطريق بينما يتعالى صوت هدير المحرك.

ديفيد يقف عند الدفة، وقد عقد القميص حول خصره على اللحم، وهو حافي القدمين.. خيل لسامح أن هذا الفتى لا يلبس حذاء أبدًا.

كان أبو سامح يقف هناك متمسكًا بحاجز القارب وهو متوتر مذعور.. التشاؤم صفة دائمة في كبار السن عامة. بالتأكيد كان يتمنى أن ينتهي هذا العرض الساحر.

قال ديفيد وهو يحمل الدلو ويتجه لحافة القارب:
- «هذا هو السمك المتعفن.. راقب ما سيحدث..»

وقلب الدلو بما فيه من مادة عفنة في الماء، ثم راح ينقط بقايا الدم بدورها. هنا بدأ الماء يفور.. للحظة لم يصدق سامح ما يراه، لكنه رأى شيئًا يشبه الديناصور يخرج من الماء ويتقلب.. ثم ظهر شيء آخر وبدا كأنهما ديناصوران يتصارعان على التهام السمك.

قال ديفيد في مرح:
- «الطول لا يقل عن سبعة أمتار.. هذا طول مخيف..»

كان ديفيد يتكلم بطريقة التطجين الأسترالية المعروفة، وحتى اسمه كان ينطقه (ضايفيض) ويقول على الثعبان snake (صنايك).. لكن سامحًا كان قد اعتاد اللهجة الأسترالية وأحبها فعلاً.

- «الإناث أصغر بشكل واضح من الذكور.. وهذا التمساح يعيش في المياه المالحة طبعًا، لكنه كذلك قادر على أن يعيش في المستنقعات»

منذ سمع سامح عن تمساح المياه المالحة وهو مندهش.. ارتباط التماسيح بالمياه العذبة والأنهار قوي جدًا، لكن حقيقة وجود مزارع شاسعة من التماسيح في منطقة البحيرات هي حقيقة غريبة.

قال الأب وهو يرتجف لرؤية المشهد البشع:
- «لماذا يربي شخص عاقل هذه الوحوش؟»

قال ديفيد ضاحكًا:
- «هذه ثروة.. الجلود ثروة واللحم ثروة.. إن التمساح كنز للتصدير، وهذه المزرعة تكفي لجعلي أنا وأبي ثريين..»

ثم أردف:
- «على كل حال أنا ولدت في هذه البيئة.. لم أعرف لنفسي عملاً في حياتي سوى تربية التماسيح وصيدها وذبحها وسلخها.. لا أجيد أي عمل آخر»

عامة أخبرهما ديفيد أن تمساح المياه المالحة يتمركز في أستراليا وجنوب شرقي آسيا، وهو من أشرس الزواحف وأخطرها، كما أنه من هواة أكل البشر بامتياز..

- «لابد من فقد عامل أو عاملين كل عام في هذه المزارع»

- «هل يخطف الناس من تحت الماء؟»

- «أحيانًا يقلب القوارب، لكن التمساح يحتاج لأن يظل رأسه فوق الماء فهو لا يقدر على التنفس تحته.. لهذا يغطس كله ما عدا قمة الرأس.. وفي الليل يمكنك لو سلطت الكشاف على الماء أن ترى العيون اللامعة المخيفة. لديه طبقة عاكسة في شبكية العين».

أخيرًا يدير ديفيد دفة القارب نحو الشط...

كان أبو سامح طبيبًا هاجر لأستراليا منذ زمن، وقد استطاع أن يرتب حياته هناك.. وقد ظفر بصديق مخلص هو كاثريل وابنه ديفيد، وهما يملكان عدة مزارع تماسيح في شمال البلاد. لم يكن مولعًا بالموضوع، لكنه عرف أنه سيروق لابنه المراهق ذي الاثني عشر عامًا سامح.

هكذا كان هذا اليوم الممتع للابن المزعج للأب، الذي لم يحب الرحلة البحرية ولا التماسيح ولا البحيرات المالحة ولا أي شيء على الإطلاق. لم يستطع أن يبعد عن ذهنه احتمال أن ينقلب القارب أو يسقط أحد ركابه في الماء.. ما فرصته في النجاة؟

حسب ما قاله ديفيد عن تمساح المياه المالحة، ففرصة النجاة صفر..

عندما ترجلوا على الشط قال ديفيد إنه يريد دعوة الأب إلى قدح من الشاي مع الحلوى، واتجه الرجلان إلى حيث مظلة يعنى بها أحد العمال.

وقف سامح على الشط وطاقة الأدرينالين لديه ما زالت عالية. كان آخر شيء يرغب فيه هو الجلوس وشرب الشاي، هكذا راح يركض هنا وهناك ويركل الرمال..

هتف الأب:
- «لحظة يا سامح.. هذه المنطقة خطرة. التماسيح تتجه للشط بالتأكيد»

قال ديفيد ضاحكًا:

- «نحن نضع سورًا من السلك الشائك حول البحيرة لمنع التماسيح من ارتياد هذه البقعة.. لديهم الجزء الغربي من البحيرة.. يمكنك أن تطمئن»

مشى سامح وحيدًا وهو ينظر للأرض. يلتقط من وقت لآخر حجرًا غريب الشكل فيدسه في الحقيبة المعلقة في كتفه..

فجأة توقف.. هذه المجموعة من البيض.. بيض أصغر نوعًا من بيض الدجاج، وله قشرة جلدية مرنة.. أي بيض هذا؟

كان أول خاطر جاب ذهنه هو أن هذا بيض تماسيح. قال ديفيد إن التمساح يضع نحو 60 بيضة، وهي ملكية مشتركة لكل الإناث.. أي أن الأم التي تجد البيض ترعاه حتى لو لم يكن بيضها.

الرئيس الأمريكي روزفلت أمر ذات مرة بإعداد عجة له من 90 بيضة تمساح، وقد أكلها وقال إنها لذيذة الطعم!

سامح راكع على ركبته يرمق البيض ويفكر..

لماذا لم يشعر بالأنثى القادمة في بطء من خلفه؟

****

الصوت الذي سمعه خلفه لم يكن مألوفًا.. لم يكن كفحيح الأفاعي لو خطر لك هذا، لكنه صوت ميكانيكي رتيب غريب. لهذا يتخيل من يمر بنهر الأمازون أنه يسمع قاربًا بخاريًا يقترب. هناك صوت آخر للتماسيح شبيه بصوت طبل مكتوم، ويعرفه من تعاملوا مع التماسيح جيدًا..

سامح لا يدرك أن هناك أنثى تمساح مياه مالحة عملاقة تدنو منه..

سامح لا يدرك أن عاطفة الأمومة والحماية قوية عند هذه الوحوش..

كانت تتقدم نحوه في بطء وهي تصدر ذلك الصوت..

تراجع للخلف مذعورًا فتعثر في الرمال وسقط أرضًا.. لأول مرة يدرك التشابه القوي بين هذا الوحش والديناصورات كما تبدو في الرسوم..

أدرك أنه لن يجد الوقت الكافي لينهض قبل أن .....

هنا كان التمساح يتراجع للخلف. عندما رفع سامح عينيه أدرك أن أحد العمال في المزرعة يجذبه من ذيله بقوة، ولم يكن الأمر سهلاً لأن ذيل التمساح الزاخر بالعضلات قادر على قتل رجل، لكن العامل نجح في إبعاده بضع خطوات، ثم صاح في الفتى أن ابتعد مسرعًا..

نهض سامح الذي لم يحتج لأمر آخر وأطلق ساقيه للريح. عندما نظر للخلف رأى أن الرجل يجر التمساح جرًا نحو البحر، وعندما ارتطمت الأمواج بالزاحف البشع بدا كأنه نسي المشاجرة الرهيبة التي كان يشتهيها وفضّل السباحة.

على مائدة الغداء كان هناك طبق من لحم التماسيح، وبالطبع لم يجسر الأب على لمسه، لكن سامحًا تذوق قطعة، وبدا له شبيهًا بطعم أفخاذ الدجاج نوعًا.. لم يكن شبيهًا بلحم السمك كما تخيل سابقًا..

قال ديفيد وهو يصب لنفسه بعض الحساء:
- «قال لي توماس إن أنثى تمساح تعرضت لك على الشط.. خذ الحذر.. من النادر أن يهاجم التمساح الناس على البر، لكن الأمر يختلف إذا تعلق بتهديد يتعرض له الصغار..»

ضحك سامح ولم يعلق..

قال ديفيد:
- «ليس من المعتاد أن تمشي التماسيح كل هذه المسافة لتضع بيضها.. قلت لك إننا نسمح لها بالتجوال في الجانب الغربي فقط»

واصل الكبار الأكل والكلام، بينما خطر لسامح أنه يريد السير قليلاً على الشط.. الحق إنه كان مفتونًا بالبيض الذي وجده وسط الرمال، والذي كاد يكلفه حياته.

من جديد مشى فوق الرمال يفتش عن البقعة التي وجدها..

لا توجد تماسيح قريبة. ممتاز.. لو ظهرت الأم من لامكان هذه المرة فهي كائن شيطاني فوق الطبيعة..

أخيرًا دنا من مجموعة البيض.. هنا أصابته الدهشة..

لقد كان بعض البيض يتحرك ويهتز.. ثم رأى بيضة تتمزق قشرتها اللدنة، ورأى خطمًا صغيرًا يبرز من الداخل وهو يحاول التحرر.. هذا تمساح يولد في هذه اللحظة المباركة..

جثا سامح على الرمال مفتونًا بالمنظر.. هناك تماسيح صغيرة أخرى توشك على التحرر.. مد يده والتقط بيضة من البيض السليم وفتح حقيبته ودسها فيها.. ثم عاد يراقب هذه الأعجوبة.

أخيرًا خرج التمساح الصغير من البيضة.. كان في حجم السحلية الصغيرة، ويحتفظ بنفس درجة قبح وبشاعة البالغين. كل الكائنات الطفلة جميلة لكن يبدو أن التمساح استثناء.

عندما مد سامح يده نحو الكائن فوجئ بأنه وثب في الهواء محاولاً قضم إصبعه!

هذا مذهل!.. إنه يحتفظ بشراسته كاملة منذ لحظة الولادة.

لا أحد يقدر على أن يمسك بهذا الوحش الصغير الوليد بين يديه.. إنه سيقضم يدك فورًا...

قرر سامح أنه رأى ما يكفي.. هكذا انطلق جريًا عائدًا نحو أبيه وديفيد. يمكنه تخيل التماسيح الصغيرة وهي تتخبط إلى أن تأتي أم من الأمهات الجوالات على الشط لتعنى بها. على الأرجح ستقودها نحو البحر..

المغامرة الصغيرة التي بقيت له كانت أن يحمل البيضة معه سرًا إلى داره عندما عاد أبوه، بعد يوم ممتع مرهق في مستعمرة التماسيح. كان هناك في البيت حوض أسماك زينة فارغ لم يبق فيه سوى بعض الحصى، وقد صب فيه بعض الماء ثم نقله لغرفته وهناك وضع البيضة على القاع وطفق يراقبها.

المعجزة لم تتأخر أكثر من يوم واحد..

عند ظهيرة اليوم التالي رأى المنقار الصغير يهشم القشرة، وخلال ربع ساعة تحرر كائن فاتن صغير بحجم السحلية. كان لحوض السمك غطاء قابل للغلق.. لذا وضعه بإحكام وراح يراقب التمساح الوليد الذي يضرب الجدران الزجاجية..

- «سوف أطلق عليه اسم (سولتي) نسبة للمياه المالحة التي جاء منها».

ولنفس السبب ملأ قبضته بالملح وسكب بعضه في الماء ليجعل البيئة مألوفة بالنسبة للتمساح. ثم أنه بحث في الثلاجة حتى وجد بعض علب التونة. فتح واحدة واقتطع منها بعض اللحم المفتت بملعقة. وفتح الحوض من أعلى. هنا وثب التمساح برشاقة مذهلة محاولاً قضم أنامله. وجد بالكاد الوقت الكافي ليسقط قطعة اللحم ويعيد غلق الغطاء..

- «هذا الحوض يحوي قنبلة موقوتة».

قالها لنفسه، وإن اعترف أنه كائن فاتن.. فاتن إلى أقصى حد...

****

كامل يواجه لحظات سوداء.

لم يكن ما يخوض فيه مجرد وحل وديدان.. لقد انزلق عدة مرات، وفجأة أدرك أنه يتحسس جثة.. هذا حق.. جثة بشرية متحللة تسبح هناك وسط الوحل.

أصابه الفزع الهستيري الذي يصيب من يتحسس جثة، كأن الموت مرض معد ينتقل باللمس. تراجع للخلف وشهق.. يريد بعض النور.. يريد أن يعرف أين هو بالضبط..

على العموم يدرك من الوحل الذي لامس شفتيه أن هذا ماء عذب.. ليس في البحر. كان يعرف أن هناك مصرفًا يلتقي بالبحر في النقطة التي كان يسبح فيها. ذات مرة رأى جثة حمار طافية كريهة الرائحة تتجه عبر مياه المصرف والوحل لتصب في البحر..

يمكنه أن يخمن أنه في هذا المكان.. لكنه ليس على السطح.. الأمر أقرب إلى كهف مظلم تحت مستوى المياه، وهذا الكهف يسمح بدخول الهواء من مكان ما...

كهف مليء بالجثث المتحللة؟

عليه أن يتحرر وأن يجد مصدرًا للنور..

كان يشق طريقه بصعوبة بحركات أقرب للسباحة.. سباحة في الوحل.. وأدرك أن الجثة التي شعر بها لم تكن الوحيدة. كما أن هناك جثة حيوان متحلل لم يتبين طبيعته.

يرى نجوم السماء..

إنه يتحرر ولا شك في هذا..

لكن يبقى السؤال: ماذا أتى بي هنا؟ أين أنا بالضبط؟

****

يذكر كامل جلسته في مكتب مدير الأمن محاطًا بمجموعة من الرتب والكاسكيتات ولفائف التبغ والبدلات البيضاء وعلامات الخطورة..

هل تفضل الشاي أم القهوة يا دكتور؟ القهوة؟ إذن هي القهوة يا علاء..

كامل يشعر بحيرة، فمن غير المعتاد أن يستعين رجال الشرطة بخبرات خبير أحياء مائية مثله، وقد أدهشه أن يأتي له ضابطان في مقر عمله في معهد علوم البحار يطلبان رأيه في مهمة استشارية..

جلس متوجسًا ينتظر ما سيقال له. بعد وقت طال وأوراق توقع ودعابات، قال الضابط الكبير:
- «نحن موقنون من وجود سمكة قرش تعبث حول شواطئنا..»

حك كامل ذقنه:
- «ولماذا لم تطلبوا رأي خفر السواحل؟»

- «لأنهم يصرون على أننا نهذي..»

ثم أخرج بعض الصور الفوتوغرافية من ملف أمامه، وقدمها لكامل..

استطاع كامل أن يرى في الصور أطرافًا آدمية مبتورة ملوثة بالوحل.. هناك ساعدان وساق.. لا توجد رؤوس.

رفع رأسه متسائلاً طالبًا القصة، فقال اللواء:
- «هناك ثلاثة أشخاص قد اختفوا عند شط جمصة.. الاختفاء تم على مدى شهر..»

- «هل يجيدون السباحة؟»

- «على قدر علمي لا أحد يجيد السباحة.. الكل يجيد المشي على القاع.. لكن الموج ليس بهذا الارتفاع.. دعك من أن الموج لا يلقي بأطراف مبتورة على الشط»

كان التفسير الوحيد الممكن هو وجود سمكة قرش اختارت سواحلنا لتمرح هناك.. وهي سمكة لم يستطع خفر السواحل أن يجدوها أو يظهر شهود على رؤيتها..

- «نحن في مأزق.. نحن في انتظار اختفاء الشخص الرابع والعثور على جزء من جثته.. نحتاج إلى كل خبرة علمية ممكنة»

قال أحد الضباط بعد ما ظل صامتًا طيلة المحاورة:
- «هناك حل أن نغلق الشاطئ، لكن هذا يمثل كارثة اقتصادية لا نتحملها»

كانت هذه هي العقدة الدائمة.. عقدة فيلم الفك المفترس حيث تتصارع المصلحة الاقتصادية مع مصلحة الناس.. الكساد أم خطر سمكة قد توجد أو لا توجد.. هنا يفضل الناس أن يقامروا، فالسمكة لا تلتهم شخصًا كل يوم..

لكن الأمر يختلف هذه المرة: لا توجد سمكة على وجه اليقين.. هناك شيء يقتل، ولعل التدقيق في الأشلاء يشي بأنها مزقت بسكين سفاح.. لا أعني هذا طبعًا لكني أضرب لك مثالاً توضيحيًا.

قال كامل وهو يرسم بعض الخطوط على ورقة:
- «أقترح إذن أن نقوم ببعض الورديات لمسح الشط. سنضع شبكة محكمة من المراقبة على الشط كله حتى إذا جاء الحادث التالي عرفنا بالضبط حقيقة ما نواجهه»

قال اللواء في لهجة حسم:
- «أنت تملك سلطة كاملة.. ضع خطة وسوف تنفذ كما تريدها.. لا أريد أن أجد الجثة الرابعة عما قريب»

****

تحولت حياة سامح إلى طقوس خفية لا يعرف أحد كنهها. كان يخفي التمساح الصغير في حجرته ويتسلل ليطعمه أو يجلس الساعات يراقبه..

ولا يعرف متى ولا كيف ولد الاسم، لكنه صحا ذات يوم ليعرف أن التمساح اسمه سولتي. بماذا تسمي تمساح مياه مالحة سوى باسم سولتي؟ وكان يمضي وقتًا طويلاً معه. من حسن الحظ أن الأب كان مشغولاً فلم يكن يدخل حجرته، أما الأم فهي لا تعرف.. لأن المياه عكرة وقاع الحوض موحل ومغطى بالحصى.. يسهل أن تخبئ تنينًا فيه، وعلى كل حال لم يكن طول سولتي قد تجاوز طول سحلية.. هكذا كانت تفترض أن الحوض خالٍ وإن كان ماؤه قذرًا.

جاء اليوم الذي أعلن فيه الأب أنهم ذاهبون إلى مصر. لديه أعمال عديدة في بلدته المنصورة وزيارات لبعض أقاربه.. أمه مريضة جدًا ولعل هذه الزيارة الأخيرة لها.. ستكون إجازة قصيرة لكنها ممتعة وقد تأخرت كثيرًا..

كان سامح يفكر في توتر..

ليس هناك من يعنى بالتمساح. هناك من يطعم حيوانات الناس في بيوتهم، لكنه لا يستطيع الاتفاق مع أحدهم لأن هذا يفضح القصة كلها..

هناك حل آخر هو التخلص من التمساح في المجاري أو بالوعة الحمام، لكنه لا يجسر على القيام بذلك..

هكذا ولد الحل التآمري. خطة خيالية فعلاً لكنها بدت له معقولة. سوف يأخذ سولتي معه إلى مصر. إنه صديقه ولن يتخلى عنه..

بالطبع ليس واردًا أن يتم الأمر بشكل قانوني أو تطبق قوانين حجر الحيوانات.. ليس من الوارد أن يقبل أبوه دخول هذه الدائرة الشيطانية من أجل سحلية ذات أنياب.

في مصر سوف يختار بين أن يعود بالتمساح لأستراليا ثانية، أو يتركه في النيل للأبد، وعلى الأرجح سيتعلم التمساح الحياة في المياه العذبة. التماسيح الأفريقية ذات الأنياب البارزة من الفم المغلق سوف تتعلم سريعًا أن تحب التمساح ذا الأسنان المختفية. لا عنصرية في عوالم التماسيح.

كانت الأم تعد الحقائب، ووسط ثيابه وضع سامح أسطوانة بلاستيكية كبيرة واسعة العنق استطاع بصعوبة بالغة أن يضع فيها التمساح الصغير مع بعض الماء ومحتوى علبة سردين. فليكن ما يكون.. ستكون معجزة لو ظل لدى التمساح أكسجين يكفي الرحلة الشاقة الطويلة إلى مصر، لكن لنترك الحظ يلعب دوره..

يمكن القول إن الخطة نجحت..

عندما انفرد بنفسه في بيت أقاربه في مصر، وبعد الكثير من التحيات والقبلات استطاع أن يصير في غرفته، ويفتح الأسطوانة بحذر مستعدًا للتخلص من الجثة. لكنه فوجئ بأن الوحش الصغير ما زال حيًا يتحرك في وهن. ولعله كان في لحظاته الأخيرة..

أخيرًا عاد الهواء لرئتي الوحش، وما لم يعرفه سامح هو أن التمساح يقدر على الحياة مع هامش أكسجين ضئيل جدًا.. ثم أن عمره طويل جدًا..

أدرك مع الوقت أن مهمته تزداد صعوبة.. لن يستطيع إخفاء هذا السر للأبد..

يمكنه إبقاء الوحش داخل الأسطوانة البلاستيكية بعد عمل ثقوب في الغطاء، ويمكنه أن يطعمه.. لكن هذا الوضع مستحيل مع الوقت خاصة في بيت أقاربه، وعلى الأرجح لن يستطيع أبدًا أن يوفر حوضًا زجاجيًا كالذي كان في أستراليا..

لقد صار التمساح همًا..

خطر له أن يتخلص منه في المرحاض، وهو يعرف أن التماسيح تظل حية وتعيش في المجاري.. لكنه لا يجرؤ على عمل ذلك..

جاء الحل بعد ثلاثة أيام عندما دخل الخال المتحمس الذي يتصبب عرقًا، وهتف ملوحًا بيديه:
- «لا يمكن أن نكون في المنصورة ولا نمضي يومًا في جمصة ويومًا في رأس البر.. إن لذة المصيف لا تقارن بشيء».

بدا الأب متحمسًا وكذلك الأم، أما سامح فقد خطر له أن هذه هي فرصته.. شاطئ كبير يمكن التخلص فيه من ربع ديناصورات العالم فلا يظهر لها أثر.

يبدو أنه سينجح في الخلاص من اللعنة التي جاء يحملها من أستراليا.

****

كامل يخوض الأوحال وأخيرًا يرى النجوم ويرى الشط..

مشى مترنحًا وبصعوبة بالغة إلى أن شعر بقدميه على الرمال. منحه هذا الكثير من الاطمئنان. يمكن للمرء أن يواجه الكثير من الأمور ما دامت قدماه على أرض ثابتة. فيما بعد سيحاول فهم هذا الذي حدث له وأين كان..

ثمة جزء معين قد محي من ذاكرته، وهو غير قادر البتة على استرجاعه، لكنه على الأقل قد تحرر. وهناك في ضوء القمر راح ينظر إلى البحر المظلم حيث الموج المتلاطم يصل لعنان السماء. هل هو يتخيل أم إنه يرى جذع شجرة عملاقًا يتحرك في الظلام من بعيد. هل هو يهذي؟

- «قف مكانك!».

كان هذا الصوت قادمًا من وراء الكشاف القوي المسلط على عينيه. لا يرى شيئًا لكنه يسمع الصوت الحازم.. وأخيرًا يتبين جنديين مسلحين يصوبان السلاح نحوه لكنه لا يرى الوجهين..

- «ماذا تفعل هنا؟»

الحق أنه لا يدري ما يفعله هنا. لكنه على كل حال يعرف الشكوك التي ينثرها من حوله كل من يمشي على الشط ليلاً. إن احتمال كونه مهربًا ليس أقل الاحتمالات..

ثم تذكر كذلك أنه المسئول عن هذه الدوريات الليلية. كان هذا جزءًا من خطته..

****

عندما رأى الأب الأسطوانة البلاستيكية وما فيها، أصابه الهلع.. لم يتصور أن يتمادى سامح إلى هذا الحد..

- «وجئت به من أستراليا إلى هنا؟».

لم يرد سامح.. كان مضطرًا للصمت لأنه يريد أن يساعده أبوه، لذا تلقى اللوم بكثير من الذل.. كانت هذه فرصته الوحيدة لأنه لا يرغب في أن يقتل التمساح الصغير..

قال الأب للخال:
- «سوف أقوم بجولة على الشط مع سامح».

- «سوف آتي معك».

كان الأب مستعدًا للقتال والقتل كي لا يتبعه أحد، لذا تملص من الخال بكثير من الفظاظة.

وعندما دنا المساء وغربت الشمس، مشى الأب وسامح على الشط متجهين نحو الشرق..

لم يكن هناك أحد، وقد بدا أن الظلام يحجب الرؤية فعلاً..

هناك قرب الشط عند مصرف الماء العذب مد يده وبحذر فتح الأسطوانة البلاستيكية، ثم وضعها في الماء.. ونظر إلى الشيء البشع الذي ينسل خارجًا.

في تأثر هتف سامح:
- «وداعًا يا سولتي!».

- «بل قل في ستين داهية..»

وقف الاثنان يراقبان الشيء وهو يسبح في الماء ويختفي، ثم تأبط الأب كتف ابنه عائدين.. كان يحكي له عن طفولته وكيف كان طفلاً قليل الأدب، من ثم دفع ثمنًا فادحًا فيما بعد...

هكذا انتهى دور سامح في القصة.. لقد قضى بضعة أيام في جمصة ثم عاد مع أبيه والأسرة إلى المنصورة، وبعد عدة أيام انتهت إجازة الأب وعادت الأسرة إلى أستراليا...

لقد بذر البذرة اللعينة ولم يعرف أنه بذرها.. ليست هذه الطريقة المثلى للهو الأطفال، ولكننا لا نعفي الأب من المسئولية.. بل هو صاحب الفكرة المقيتة بالتخلص من التمساح الطفل. الحقيقة أن كثيرين في الولايات المتحدة يرتكبون هذا الخطأ لهذا تحولت شبكة المجاري هناك إلى بيت زواحف يثير إعجاب أي عالم حيوان..

سامح قد قام بدوره في القصة ولا أعتقد أننا سنسمع عنه ثانية..

****

مر عام أو أقل قليلاً..

عندما جاء الصيف وكثر المصطافون، بدأت بعض الظواهر الغريبة. على الأرجح كانت هذه الحوادث تقع قرب المساء..

ينزل خمسة أشخاص إلى البحر وسط الموج المتلاطم.. يتبادلون الصياح والضحكات ولا يبتعدون عن الشط كثيرًا على كل حال، ثم تهدأ الأمواج فيكتشفون أنهم أربعة فقط..

في الحادث الأول افترض الجميع أن المختفي قد غرق. أما في الحادث الثاني فقد اختفت الفتاة.. لكنهم وجدوا جزءًا من ساقها ألقى به الموج على الشط بعد يومين..

الاختفاء الثالث ترك بقايا عديدة، وقد أثبت الحمض النووي أن الأطراف لنفس الشخص: المهندس القادم من المنيا ليتمزق على شط جمصة..

قضى كامل في المشرحة وقتًا لا بأس به يتفحص الجثث، وكان ما أثار دهشته وجود سن صغيرة مغروسة في لحم ساق الفتاة.. سن مدببة هشة..

قال الطبيب الشرعي، وهو رجل أصلع قصير القامة يرمقك من فوق إطار نظارته في فضول:

- «هذا يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن هناك سمكة قرش».

تفحص كامل السن بين أنامله
وقال في شك:
- «لتقطع ذراعي إن كانت هذه سن سمكة قرش..».

في تهكم أصلح الطبيب من وضع عويناته ثم تساءل:
- «سن أسد هي إذن؟».

- «هي قريبة جدًا من سن التمساح..!»

- «تمساح في البحر المتوسط في جمصة.. أنت تفوقت على نفسك.. هذه هي العبقرية الحقة».

اضطر كامل للصمت، فهو لا يملك خبرة بالتماسيح، ولم ير سن تمساح إلا في متحف التاريخ الطبيعي.. قال لنفسه إنه غالبًا محق لكنه لا يقدر على إثبات حرف من كلامه....

****

هكذا قام كامل بتكوين فرق بحث.. فرق تمشط الشط جيئة وذهابًا عندما تدنو الشمس من الغروب..

كانوا ينظرون له في بلاهة.. هو كان ينظر لنفسه في بلاهة.. لا يتوقع أن يحدث شيء خاص، فهذه الحوادث نادرة.. يشبه الأمر أن تراقب أرنبًا متوقعًا أن تهبط حدأة من السماء لتختطفه وتمزقه..

مر أسبوع كامل على هذه المراقبة، ولم يحدث شيء...

إلا أنه كوفئ على صبره في النهاية بطريقة غريبة نوعًا..

هذا هو الجزء الذي لم يعد يذكره، وقد أنسته إياه الصدمة. كان يمشي على الشط ليلاً وخطر له أن يضيء الكشاف ليتفقد قناديل البحر الميتة الملقاة على الشط.. وقد غمر قدميه في الماء.

لا أحد سواه على الشط الممتد المظلم. يمكن أن يحدث أي شيء....

فجأة ارتفع شيء عملاق من الماء وشعر بشيء جبار يطبق على ساقيه.. سقط في الماء، فأدرك أن هذا الشيء يحاول أن يبقيه تحت الماء. لا شك في أنه قدير على ذلك بقوته المرعبة..

تمساح!... قالها لنفسه وهو لا يصدق.. لقد كانت تنبؤاته صحيحة، لكنه على الأرجح لن يعيش ليعلن أنه عبقري..

قوة الكائن والفكين مريعة لا يمكن تخيلها. سوف أفقد وعيي حالاً... سوف أختنق..

تبًا لكم.. فلينقذني أحدكم قبل فوات الأوان!!!

ما لا يعرفه كامل هو أن التمساح يملك أسنانًا هشة تتبدل بلا توقف وينمو سواها، وهي تتراص على عدة صفوف في فكيه. برغم قوة الفكين الهائلة فإن الأسنان لا تسمح له بالأكل بشكل مريح، لذا يفضل غالبًا أن يدفن فريسته في الطين لفترة إلى أن تتحلل، وتصير لينة قابلة للمضغ.

كان هذا هو المصير الذي آل له كامل عندما حمله التمساح بين فكيه نحو الطين المتراكم على ضفتي المصرف. لقد اصطنع لنفسه بعض الفتحات والكهوف يدفن فيها ضحاياه.

عندما أفاق كامل من فقدان الوعي، كان يتنفس لأنه كان في جيب هوائي تحت الوحل كما أنه لم يكن مغمورًا بالكامل. لم يعرف أنه كان موضوعًا في برميل التخليل الخاص بالتمساح بانتظار أن يلين لحمه فالالتهام.

نحن نعرف كذلك أنه استطاع بصعوبة أن يحرر نفسه من الوحل ويصل إلى الشط حيث استوقفه رجلا شرطة.

كانت الذكرى قد محيت من ذهنه، واصطنع ذاكرة زائفة.. تخيل أنه كان يتصرف كأي مصطاف.. كان يسبح حيث لا توجد قناديل بحر، وأنه كان يجرب مهارته في السباحة وحيدًا.. ثم حدث شيء ما.. ما هو؟ لا يذكر.

على أنه عندما وصل كامل إلى الضابط الذي يدير دوريات الأمن، كان قد تذكر كل شيء.

لقد زالت الصدمة، وبدأ يسترجع شكل ذلك الذي هاجمه.

كان تمساحًا ولا شك في هذا. تمساحًا عملاقًا انقض عليه في المياه الضحلة، أما الكلام عن تمساح يسبح في مياه بحرية فأمر يحتاج إلى تفسير.

كان كامل في حال سيئة.. ملوثًا بالوحل بالكامل وقد تمزق لحم ساقيه والتوى كاحله.. كما أنه كان في خطر الإصابة بالتهاب رئوي من فرط ما دخل رئتيه من ماء آسن.

هكذا كان عليهم أن ينقلوه إلى المستشفى حيث قضى ليلة كاملة.

في الصباح كان أول وجه يراه هو وجه مدير الأمن شخصيًا.. كانت كلمات كامل مقتضبة:
- «هذا تمساح فعلاً!!»

- «تمساح؟»

- «ويدفن ضحاياه في الوحل ثم يعود لالتهامهم.. كان هذا موعدي أمس لكن لم أنتظر عودته لأنني غير مهذب»

فكر اللواء قليلاً وحك ذقنه ثم تساءل:
- «كما فهمت، أنت هوجمت في مياه مالحة.. لو افترضنا جدلاً أن هناك تمساحًا نيليًا جاء من بحيرة ناصر، فهو لن يسافر كل هذه المسافة من الجنوب إلى البحر المتوسط ولن يسبح في مياه مالحة...»

- «هناك تماسيح مياه مالحة في العالم.. لكني لا أملك أدنى فكرة عن الطريقة التي جاء بها»

بالطبع كانت عينا الضابط الكبير مفعمتين بالشك.. القصة تحتاج إلى ما هو أكثر من الصودا لابتلاعها.. لكن تبقى حقيقة واحدة هي أن هذا الرجل في الفراش يبدو كلعبة كان يلهو بها طفل مخبول.

تفتيش منطقة الوحل التي تحدث عنها كامل كانت أشبه بفقرة في فيلم رعب.. لقد ظهرت بقايا المختفين جميعًا.. مهما افترست الشخص فإن بعض أنسجته تبقى ويمكن تمييزها بالحمض النووي.

هكذا عقد اجتماع متجهم طويل، وتم الاتفاق على إخلاء الشط بالذات في منطقة الحوادث السابقة، وعمل بعض الأكمنة مع استخدام طعوم تجذب التمساح.

****

للمرة الثانية يجول كامل وحده. وللمرة الثانية يكون هو المحظوظ الذي يقابل التمساح.

كان الليل قد دنا.. وكان هو يمشي شارد الذهن تقريبًا في ذات البقعة التي سبق أن تم اختطافه فيها منذ برهة. كانت المنطقة خالية من الناس أصلاً ثم إن حظر السباحة في هذه الأماكن كان شديدًا في الفترة الأخيرة، لهذا كان وحده تقريبًا.

كان الضوء خافتًا لكنه استطاع أن يميز الحدود الخارجية لرجل.. رجل يرقد هناك على الرمال على ظهره، ومن الواضح أن معه لوازم الشاي ونارجيلة صغيرة، ويبدو أنه كان ينعم بالرقاد بعد رحيل

الشمس وبعد ما بردت الطبيعة قليلاً. على الأرجح هو واحد من الخفراء الذين انتشروا في المكان مؤخرًا.. الأحمق يعتقد أن الحارس لا يُهاجَم أبدًا.

أما هذا الظل المتحرك الزاحف على الرمال فهو شيء يريد أن يقبض على هذا النائم.

عندما تقترب أكثر تجد أن هذا شيء له طول تمساح.. له معالم تمساح.. له زحف تمساح.. يزحف في الغبشة نحو اللحم النائم... إنه ببساطة تمساح عملاق قد خرج من الماء وظفر – أو كاد – بغنيمة ساذجة غافية..

الفك يُفتح ليقضم الرجل النائم أو يجره للماء..

كان كامل يعرف معلومات شحيحة عن التماسيح.. خبراء الأحياء المائية ليسوا علماء زواحف لو لاحظت هذا، لكنه على الأقل يعرف ما يكفي ليتصرف..

ركض نحو الشيء الزاحف البشع.. رأى الرأس العملاق الذي يدنو من الحارس. ارتمى على الفك المغلق واحتضنه بذراعيه بأقصى طاقة لديه، ثم صرخ.. صرخ حتى يستيقظ الحارس قبل أن يضرب الذيل الجبار المجنون كاملاً...

كان المشهد مثيرًا للذهول، يذكرك بصراع هرقل مع الهيدرا.. أسطورة حية تتحقق..

لكن كاملاً لم يكن قويًا على الإطلاق. هو فقط يذكر معلومة بسيطة تقضي بأن فكي التمساح ينغلقان بقوة لا يقدر بلدوزر على فتحهما، لكنهما بالنسبة للفتح واهنان جدًا... يستطيع أي طفل أن يمنع التمساح من فتح فكيه لو ضغط عليهما بيده، فقط لو تحاشى الذيل القادر على قتل رجلين.. أما لو أطبق التمساح على جزء من جسدك فأنت تحتاج لمعجزة كي تفتح فكيه من جديد.

كانت الضوضاء كافية كي يصحو الحارس مذعورًا، ويبسمل ويحوقل، ثم يحمل البندقية وبيد راجفة يلصقها برأس الوحش.. حتى أنه لو ارتجف أكثر لأصابت الرصاصة كاملاً.

انطلقت الرصاصة مدوية فتشنج الجسد حتى أنه ألقى بكامل بضعة أمتار بعيدًا..

سرعان ما جاء الرجال على ضوء الكشافات لينهوا المهمة بالمزيد من الطلقات.. كان الخوف يجعلهم يطلقون بلا ترو وبلا اقتصاد في الرصاص.. المهم أن يمزقوا هذا الشيء.

عندما انتهوا من عملهم، كان الشاطئ عبارة عن فوضى من الدم ورائحة البارود والطلقات الفارغة..

وقف كامل يلهث.. ركبتاه من عجين لين، وقد امتلأ فمه بالرمال.. وتقلصت ذراعاه من فرط الجهد العضلي...

لقد هلك الكابوس...

ليس كامل خبير تماسيح.. لا يعرف عنها إلا القليل..

لكنه ظل يراقب الجثة في شك.. لو كانت معلوماته صحيحة فأسنان التمساح تبرز من بين الشدقين وهما مغلقان... هذه علامة تميز التمساح الأفريقي.. التمساح النيلي... التمساح الأمريكي وتمساح المياه المالحة يغلق فاه فلا تظهر أسنانه..

ليس كامل خبير تماسيح.. لهذا دعا الله أن يكون على خطأ..

لو كان محقًا فهذا تمساح آخر.. تمساح نيلي فر من بحيرة ناصر.. هناك حوادث مماثلة تكررت مؤخرًا، وإن كان من الصعب أن يصل إلى البحر المتوسط..

لو كان محقًا فتمساح المياه المالحة ما زال حيًا وحرًا وسوف يعلن عن نفسه عما قريب..

أتمنى أن أعرف ما سيحدث بعد ذلك، لكن قصتي يجب أن تنتهي عند نقطة ما.. لهذا أترك الباقي لخيال القارئ وللحظ!

تمت